

التفسير المطول - سورة الأعراف 007 - الدرس (43-60): تفسير الآيات 148 - 153 ،
اتخاذ قوم موسى غيابه سبباً لكفرهم وشركهم بالله
لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 04-07-2008

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم
أخرجنا من ظلمات الجهل والوهم إلى أنوار المعرفة والعلم، ومن وحول الشهوات إلى جنات القربات.

اتخاذ قوم فرعون العجل إلهاً و عبادته من دون الله :

أيها الإخوة الكرام، مع الدرس الثالث والأربعين من دروس سورة الأعراف، ومع الآية الثامنة
والأربعين بعد المئة، وهي قوله تعالى :

وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ خُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ أَلْمُ يَرَوْنَ أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا
يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ (148)

سورة الأعراف

قوم موسى رأوا بأعينهم كيف أن البحر أصبح طريقاً يبساً، رأوا بأعينهم هذا الطاغية الذي ما
كان أحد يصدق أن يموت، وقد أهلكه الله عز وجل، قوم موسى رأوا هذا النبي الكريم ينزع:

وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (108)

سورة الأعراف

يضرب :

فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (107)

سورة الأعراف

هؤلاء ما الذي فعلوه ؟

﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ خُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ﴾ وعبدوه من دون الله، هذا
كلام يحتاج إلى تعليق .

الشرك الخفي و الشرك الجلي :

أحياناً إنسان يعبد إنسان دون أن يشعر، يعني بطبعه ويعصي الله، يعلق عليه الآمال، يتوكل
عليه، يعطيه كل حبه، وكل ولائه، ولا يعبأ بمنهج ربه، هذا نوع آخر، ألا ترى إلى الشمس، إلى
القمر، إلى النجوم، إلى الأمطار، إلى خلق الإنسان؟

أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (8)

سورة البلد

إلى طعام الإنسان، إلى شراب الإنسان، إلى الماء العذب الزلال، ألا ترى هذه الآيات الدالة على عظمة الله؟ فكيف تطيع إنساناً وتعصي خالقك؟ كيف تطيع مخلوقاً ضعيفاً وتعصي خالق السماوات والأرض؟ يعني الصورة اختلفت أما حقيقة الشرك واحدة .
لذلك قال عليه الصلاة والسلام :

**إن أخوف ما أخوف على أمتي الإثراك بالله أما إني لست أقول يعبدون شمساً و لا قمراً
و لا وثناً و لكن أعمالاً لغير الله و شهوة خفية**

ابن ماجه في السنن وفي سننه ضعف

هذا المعنى تؤكد الآيه الكريمة :

وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ (106)

سورة يوسف

الشرك الجلي لا وجود له في العالم الإسلامي، ولكن الشرك الخفي أن تطيع مخلوقاً وتعصي خالقك، أن تطيع زوجتك، وتعلق عليها كل الآمال، وتكسب المال الحرام إرضاءً لها هذا شرك.

عظمة الله عز وجل تظهر في الكون بواقعه الحالي أكثر مما تظهر بخرق نواميسه :

على كلٍ هم رأوا المعجزات الحسية ونحن نرى الآيات الكونية، الكون لا نهاية له، آلاف مليارات المجرات، وكل مجرة ملايين ملايين الكواكب، وخلق الإنسان آية، وخلق النبات آية، وخلق الحيوان آية، نزول الأمطار آية، الماء آية، الهواء آية، نحن محاطون بآيات لا تعد ولا تحصى، والحقيقة أن عظمة الله عز وجل قد تتبدى في الكون بواقعه الحالي أكثر مما تتبدى بخرق نواميسه، لكن من ضعف الفهم قديماً كانت المعجزة خرق النواميس، لكن الآن خلق الإنسان.

تمشي في الطريق تستمع إلى بوق مركبة تتزاح نحو اليسار، هل تدري ما الذي حصل؟ أودع الله في دماغك جهازاً دقيقاً جداً، يحسب هذا الجهاز تفاضل وصول الصوت إلى الأذنين، الصوت من هنا هذه أقرب، وهذه أبعد، التفاضل واحد على ألف وستمئة و خمسين جزءاً من الثانية، هذا الجهاز من أجل أن تعرف جهة الصوت ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ﴾ من أجل أن ترى البعد الثالث.

حاسة الشم عشرين مليون عصباً شمياً، ينتهي كل عصب بسبعة أهداب، الهدب مغطى بمادة تتفاعل مع الرائحة، ينشأ شكل هندسي، رمز الرائحة، يُشحن للدماغ ، هذا الرمز يُعرض على الذاكرة الشمية، عشرة آلاف بنداً، حيثما يتطابق الرمزان تكتشف أنه يوجد بالطعام المادة الفلانية .

أتحسب أنك جرم صغير

* * *

عبادة اليهود للأوثان التي لا منهج معها و لا يُنتفع بعبادتها :

أنا بدأت أن قوم موسى رأوا العصا التي ألقاها فأصبحت ﴿هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ رأوا يد سيدنا موسى نزعها فإذا هي كالكوكب الدرّي، رأوا العصا ضُرب بها البحر أصبحت طريفاً يبساً، ثم عبدوا العجل من دون الله، ونحن معنا آيات ناصعات، بينات، واضحات، كل شيء واضح، ومع ذلك: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ هذا الذي يغتصب بيتاً لا يرى أنه سيحاسب؟ هذا الذي يأكل المال الحرام لا يرى أن هناك إله عظيم سوف يحاسبه على ذلك؟ المشكلة واحدة، الصورة مختلفة.

﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ﴾ هو ذهب إلى المناجاة، ولعله أمضى أربعين ليلة ظنوه لا يرجع، وكأن الدين مرتبط بسيدنا موسى، فإذا غاب مديداً تحلوا من عبادات الله عز وجل. لذلك ماذا قال الصديق؟ من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات.

أَنَّ أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خَرَجَ، وَعُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُكَلِّمُ النَّاسَ، فَقَالَ: اجْلِسْ، فَأَبَى، فَقَالَ: اجْلِسْ، فَأَبَى، فَتَشَهَّدَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَمَالَ إِلَيْهِ النَّاسُ، وَتَرَكُوا عُمَرَ، فَقَالَ: أَمَّا بَعْدُ، فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَإِنَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ، فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ

صحيح البخاري عن عبد الله بن عباس

الرسالة مستمرة، الرسالة هذا المنهج الذي جاء به النبي الكريم مستمر. لكن أيها الإخوة، نقطة دقيقة جداً الآن، الإنسان حينما يعبد عاجلاً من ذهب صنعه الإنسان، هذا العجل عنده منهج؟ لا يوجد شيء، له أمر؟ له نهي؟ لا، الذين عبدوا الشمس معها منهج؟ الذين عبدوا البقر في الهند، البقرة معها منهج؟ هل هناك أوامر؟ هل هناك نواهٍ؟ هل هناك وسائل للتقرب من الله؟ هناك وسائل للبعد عنه، معاصي تبعدك عنه، هناك أسباب سلامتك، هناك أسباب سعادتك، هذا العجل ماذا يفعل؟

الله عز وجل مع الإنسان أينما كان يحاسبه على كل تصرف صدر عنه :

لذلك بالمناسبة: قد يعجب الإنسان، يقول لك تسعمئة مليون بوزياً، لماذا عبادات الأديان الأرضية الوضعية أتباعها كثر، أعتقد هناك سبب، والسبب واضح، لأنه ما من منهج، القضية سهلة، افعل ما شئت، أعلن ولاءك وافعل ما شئت.

إذا عبد الإنسان شيئاً دون الله عز وجل هذا الشيء ما له منهج، بالإسلام هناك أمر، هناك افعل وهناك لا تفعل، هناك حرام، هناك حلال، هناك واجب، هناك سنة، هناك فرض، هناك مندوب، هناك شيء لا يجوز، هناك شيء مُستحب، هناك شيء غير مستحسن، هناك شيء يغضب الله، المسلم أمام منظومة لا تنتهي من الأوامر والنواهي .

وأساساً تخلف المسلمون حينما فهموا أن الدين عبادات شعائرية فقط، كل أمر في القرآن الكريم يقتضي الوجوب، وما أكثر الأوامر في القرآن الكريم، وما أكثر الأوامر في السنة المطهرة، أنت أمام منهج .

فلذلك عبادة الأوثان سهلة جداً، عبادة البقر سهلة جداً، الحجر، الشمس، القمر، هذه الجوامد لا منهج معها، لا تنتفع بعبادتها، وأحياناً أضيف على ذلك: وأن تعبد إنساناً ليس معك، تعلن ولاءك له، وتفعل ما تشاء، تأخذ من الأموال ما تشاء، وتظلم ما تشاء، ليس معك هو .

لذلك من السهل بمكان أن تعبد إنساناً ليس معك، تلتقي به وتكون في أعلى درجات الأدب والمحبة والولاء، مرتاح، تبتعد عنه تكون وحشاً مع الناس، عبادة الأشخاص سهلة جداً، أما أن تعبد الله هو معك، لو حلفت يميناً كاذبة سقطت من عينه، لو كذبت سقطت من عينه، لو ظلمت هرة سقطت من عينه، لو قتلت مخلوقاً لا يحق لك أن تقتله سقطت من عينه، الفرق كبير جداً بين أن تعبد مادة، حجر، مدر، شمس، قمر، بقرة، نار، وبين أن تعبد خالق السماوات والأرض.

هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۗ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۗ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (4)

سورة الحديد

معك يحاسبك .

الله عز وجل مُطلع على نوايا كل إنسان :

لذلك لا يمكن لأمر شرعه إنسان أن يُنفذ مئة بالمئة، هذا الأمر يُنفذ مادام هذا الإنسان يطولك علمه.

أوضح مثل قانون السير، ما دام في النهار كله واضع الأحزمة أما الساعة الثالثة بالليل، لا أحد يضعها، لما الإنسان يضع قانون هذا القانون يطبق حينما يكون واضع القانون يطولك علمه، أو تطولك قدرته، أما إذا كنت مع الله فالله بأي لحظة معك، أوضح مثل :

بشهر رمضان، في شهر آب، والحر لا يحتمل والحرارة خمس و أربعون، والعطش يكاد لا يحتمل تدخل لبيتك، للمطبخ، تفتح الثلاجة، يوجد ماء بارد في الثلاجة، تستطيع أن تضع نقطة ماء في فمك؟ لا تستطيع، لأن الله معك، عظمة الدين شيء لا يصدق، بينما بالأنظمة الوضعية ما دام واضع القانون ليس معك تستطيع أن تفعل كل شيء، فرق كبير بين أن تطيع خالقاً معك، مطلع على نواياك.

كلمة أقولها: مريض مخدر هناك مثلاً حاجة ثمنها 150 ألفاً توضع في أحد شرايين قلبه، هي متفاوتة بالأسعار، هناك قسم غالٍ جداً، هناك قسم رخيص جداً، إن وضعت الرخيص وهو مخدر، وتم وضع هذا النابض في أحد أوعية القلب، وانتهت العملية وخيبت وانتهى الأمر، يستطيع

المريض أن يكشف الخطأ؟ ما من قوة تكشفه إلا الله، وضعت نوعاً سيئاً جداً، وسجلت بالفاتورة نوعاً
غالياً جداً.

الحياة لا تستقيم إلا بالإيمان بالله :

هناك أخطاء لا يمكن حتى بالقانون أن نكشفها، إن قال لك الطبيب: أريد عشرة تحاليل
تستطيع أن تناقشه؟ لا تستطيع، من يراقبه؟ الله عز وجل، أقول لكم كلمة أخرى: الحياة لا تستقيم إلا
بالإيمان بالله، ما دام واضح القانون إنسان، والإنسان المواطن قد يكون أذكى من واضح القانون.
مرة كنت بأمريكا، واضعين أجهزة لكشف السرعات الزائدة، كنت بمركبة سمعت صوتاً جديداً
لم يكن، ما هذا الصوت؟ قال لي: هذا صوت جهاز اشتريناه ينبهنا عن قرب الجهاز الذي وضع
لكشف السرعات الزائدة، معناها التعت العمليّة، جهاز وضع بالمركبة، ينبه السائق إلى أن الجهاز
الذي سيكشف السرعة الزائدة اقترب، انتبه، انتهى إذاً.
إذا إنسان واضح قانون المواطن قد يكون أذكى منه، فكل شيء يوضع يأتي مواطن يستطيع
أن يحتال ويلغي مفعوله، لذلك الآن الضبط بالعالم الغربي إلكتروني، ضبط بالغ الدقة قُطعت
الكهرباء بليلة واحدة تمت 200 ألف سرقة، مجموع المسروقات 30 مليار دولار، لأن الضبط
إلكتروني، لا يوجد كهرباء ما بقي في ضبط .
لذلك تدخل سوق كبير في العالم الغربي، أنا أقول لا يوجد أمين، إن لم تدفع ثمن السلعة
للصاغة التي على السلعة فيها مادة إن لم يؤشّر عليها أنها دُفعت تصدر صوتاً أمام قوس تغلق
الأبواب آلياً، من هو الأمين في هذا السوق؟ ضبط عجيب، لذلك كلما كان الضبط إلكتروني كان
الأجر لا شيء، لا يوجد أجر .

ربط اليهود الدين بوجود سيدنا موسى عليه السلام :

القصة أنه ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ﴾ غاب عنهم في المناجاة فربطوا الدين بوجوده، فلما
غاب عنهم عبدوا هذا العجل.
﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ﴾ من قطع ذهبية كانت معهم، هناك تعبير لطيف أن الذهب يشبه الإنسان،
بطيء الكسر، سريع الالتئام.
﴿عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ﴾ يبدو أن هذا الذي صنع العجل لو نفخت في مكان في هذا العجل
لأصدر صوتاً كصوت العجل ﴿لَهُ خُوَارٌ﴾ طبعاً العجل جسد لكن ما فيه روح، تصور إنسان يرى
في بعض المحلات لبيع الأقمشة تمثال لامرأة من شمع، والمرأة الحقيقية، كم هي المسافة؟ أحياناً
وردة بلاستيك بينها و بين والوردة الحقيقية فرق كبير هناك حياة ﴿عِجْلاً جَسَداً﴾ يعني جثة ما فيها
روح ﴿لَهُ خُوَارٌ﴾

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ سبيل السلامة، سبيل السعادة، سبيل القرب من الله، سبيل الأمن، سبيل الحكمة، سبيل الراحة النفسية، سبيل الرضا، سبيل التفوق، سبيل التفاؤل، سبيل قوة الشخصية.

﴿وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ كانوا ظالمين لأنفسهم، سبحان الله الإنسان مع الله، الله يحفظ، الله يلهم، الله يدعم، الله يدافع عنك، الله يقويك، الله ينصرك، الله يوفقك، الله يوفقك بزواجك، بعملك، بصحتك، بسمعتك .

المؤمن وقاف عند كتاب الله و سنة رسوله و الكافر لا مولى له :

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ (11)

سورة محمد

مثل واضح جداً، لكنه مؤلم: تصور ابن له أب محترم، أب مربٍ، أب عالم وغني، اعتنى بتربيته عناية صار شخصية فذة، علماً، وأدباً، وديناً، وسلوكاً، تابعه متابعة دقيقة جداً، تابع له صحته، دراسته، دينه، صلاته، أنافته، ثيابه، كلامه، حتى أوقات فراغه، صرفها فيما ينفعه، هذا الابن للتقريب كالألماسة، وإذا ابن يتيم مات أبوه، ومتشرد، كل يوم بمخفر، وكل يوم بمأوى أحداث، وهناك فاحشة، وهناك سرقات، وكلامه بذيء، وثيابه رثة، وحركاته مؤلمة، هناك موازنة بين هذا الطفل الذي له أب يرعاه، وبين هذا الطفل المشرد؟ ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ مسكين الكافر ليس له مولى، أحياناً يكون تدميره في تدبيره، أما المؤمن وقاف عند كتاب الله.

سائق تكسي أشارت له امرأة، أين؟ قالت له: خذني إلى أي مكان تريد، عدّ هذا مغماً كبيراً، قضى حاجته، وأخذ رسالة منها، ظنّها مبلغاً من المال كبير، فتحه: مرحباً بك في نادي الإيدز. يكون تدميره في تدبيره، قد يعد المغرم غمماً.

(أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ) ؟ مرة بعض القبائل صنعت إلهاً من تمر، فلما جاعت أكلته.

العاقل من شكر الله عز وجل على نعمة الهدى :

والله يا أخوان هناك معلومات يصعب تصديقها، يوجد قبائل في آسيا تعبد الجرذان، عندي تحقيق مطول مع الصور، بناء فخم، حجر منحوت، والآلهة في هذا البناء هم الجرذان والأتباع يأتون، يقفون على ظهورهم، وعلى رؤوسهم، يقدمون لهم الحليب، والطعام الطيب، هناك من يعبد ذكر الرجل في اليابان، هناك من يعبد موج البحر، اشكروا الله عز وجل، نعبد الله، نعبد خالق السماوات والأرض، نعبد الذي معنا في كل حين، نعبد الذي بيده كل شيء، نعبد الذي بيده أعداؤنا، والأقوياء، نعبد من يسمعنا، من يستجيب لنا، من ينصرنا، من يرحمنا.

﴿لَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ أنتم طبعاً وجدتم مفارقة حادة أن أشخاصاً رأوا البحر أصبح طريقاً، رأوا فرعون غرق أمامهم، رأوا آيات وأدلة، ومع ذلك يعبدون عبلاً من الذهب ﴿لَهُ خُورٌ﴾!

لاشك أنكم مندهشون لهذه المفارقة الحادة، والله الذي لا إله إلا هو في كل عصر إنسان يؤذي الناس، ليبتر أموالهم، ولا يعلم أن الله سيحاسبه حساباً عسيراً .
أذكر قصة، طالب من طلابي خاله صاحب دار سينما، سينما مستواها منحط جداً، تستقطب الشباب، الصائعين، المنحرفين، الشاردين، يعني بنى ثروة كبيرة جداً على حساب أخلاق الشباب، بالأربعينات جاءه المرض الخبيث، قال لي: كنت في زيارته صار يبكي أمامي، قال لي: جمعت هذا المال الكبير حتى أستمتع به في حياتي ما قد عاجلني المرض، ولم أستمتع به.
الله كبير، أغبى إنسان الذي لا يدخل الله في حساباته، لا تعجبوا من هذه المفارقة الحادة، نعيش مفارقات أكثر منها حدة، اغتصاب بيت؟ لا يوجد آخرة؟ لا يوجد يوم حساب؟ تطبيق زوجة تطبيقاً تعسفياً، كتبت له البيت ثم طلقها، يظن ما عليه حساب، والله هناك ظلم بالعالم الإسلامي بالبيوت، بالطبقة الدنيا هناك ظلم لا يعلمه إلا الله، وكل واحد يظلم الناس يظن أنه لن يحاسب.

العاقل من أدرك خطأه قبل فوات الأوان :

وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (149)

سورة الأعراف

يبدو هناك قسم من هؤلاء كانوا في غفلة، فلما أدركوا الخطأ، خطأ كبير .
﴿وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ شعروا بخطئهم الفادح، شعروا بهذا الانحراف الخطير إله عظيم أراكم على يد نبيه معجزات، وتعبدون ﴿عَجَبًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ﴾
﴿وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ على كل جيد أن الإنسان بعد الخطأ أدرك الخطأ، الآن سيدنا موسى :
وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعْلَيْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَيْتُمُ الظُّلُمَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوْنِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِثْ بِي الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (150)

سورة الأعراف

سيدنا موسى نبي كريم، من أولي العزم، ذهب لمناجاة الله عز وجل، وهو كليم الله، ذهب أربعين ليلة، في هذه الليالي الأربعين انحرف قومه انحرافاً شديداً ورجعوا وثنيين.

الدعوة إلى الله فرض عين على كل مسلم :

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا﴾ أيضاً نفهم شيئاً، هل تحمل هم المسلمين؟ هل يؤلمك تقصيرهم؟ هل يؤلمك انحرافهم؟ هل يؤلمك انغماسهم في المذات؟ هل تتألم لهم؟ هل تسعى لهدايتهم؟ هل تقلق على مستقبلهم؟ كلما كانت اهتماماتك واسعة تشمل قطاعاً كبيراً من الناس كلما كنت أقرب إلى الله عز وجل .

﴿غَضْبَانَ أَسِفًا﴾ الآن كأنه في شعور، مادام دخلك وفيراً، وصحتك جيدة، وبيتك جيد، مركبتك جيدة، ما لك وللناس، لا يخطر في باله يعين إنساناً، يأخذ بيد إنسان، يهدي إنساناً، أقول لكم أيها الإخوة: الدعوة إلى الله -أنا أقول كلاماً معه أدلة- فرض عين على كل مسلم، الكفاية وضع آخر، فرض الكفاية هو التبحر، والتفرغ، والتعمق، وأن تملك أدلة وأجوبة ورد على كل شبهة، هذا فرض الكفاية، إذا قام به البعض سقط عن الكل، بكل بلد مجموع من العلماء الكبار، هؤلاء فرض كفاية، أما كل واحد من الإخوة الكرام فرض عين أن يكون داعية في حدود ما يعلم فقط، ومع من يعرف، سمعت آية، سمعت حديثاً، سمعت قصة، تأثرت .

بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً

أخرجه البخاري والترمذي عن عبد الله بن عمرو بن العاص

تبلغ من؟ زوجتك، أخوك، ابنك، عمك، ابن عمك، خالك، ابن خالك، زميلك بالوظيفة، جارك، كنا بندوة، بسهرة، بنزهة، ماذا سمعت يوم الجمعة؟ عود نفسك أن تكتب نقاطاً أساسية يوم الجمعة، أن تجعل هذه النقاط محور حديثك طوال الأسبوع، زرت أختك، جالس صهرك، وابن أختك، وأختك، وسمعت تفسير آية تأثرت بها، بلغهم، اكتب عندك هذه النقاط التي تحب؟ وزع شريطاً، ليس هدية، إغارة، حتى يسمعه، سمعه أعطه شريطاً آخر .

والله عندي أخ من إخواننا لا يحسن الدعوة إلى الله، أمّن مئة شريط، ووزعهم على أقربائه، وتابعهم، أربعة، خمسة، عشرة، صاروا بالجامع من أقربائه، لما الإنسان يصدق الدعوة إلى الله فرض عين على كل مسلم، في حدود ما تعلم، ومع من تعرف، يعني أقبائوك، أصدقاؤك، جيرانك، زملاؤك.

غضب سيدنا موسى الشديد بسبب تنكر قومه لعبادة الله عز وجل :

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ يعني وجدتم غيابي طويلاً فعبدتم إلهاً آخر .
﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَالْقَى الْأَلْوَاخَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ﴾ أخوه نبي كريم، لكن غضبه كان شديداً .

﴿يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونِي﴾ يبدو أن سيدنا موسى عاش مع أخيه أمداً طويلاً في رعاية الأم، يبدو أن الأب كان متوفى في وقت مبكر جداً .
﴿قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونِي﴾ اسمع مني .

﴿وَكَاذُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتُ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلَنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أنا دعوتهم، منعتهم، حذرتهم، ما تركت طريقاً إلا سلكته، لكنهم أصروا على أن يعبدوا العجل فلما بالغت في الإصرار ﴿وَكَاذُوا يَقْتُلُونَنِي﴾ ﴿قَالَ ابْنُ أُمِّ إِبْنِ الْقَوْمِ اسْتَضْعَفُونِي﴾ أنا واحد ﴿وَكَاذُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتُ بِيَ الْأَعْدَاءَ﴾ خلافي معك، وخلافك معي أمام هؤلاء الذين تنكروا لهذه الدعوة يشتمون بنا. أنا أقول أيها الإخوة الدعاء: اللهم إنا نعوذ بك من شماتة الأعداء، ومن السلب بعد العطاء، ومن عضال الداء.

خروج سيدنا موسى عن طوره بسبب شدة إيمانه و ألمه من قومه :

﴿قَالَ ابْنُ أُمِّ إِبْنِ الْقَوْمِ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتُ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلَنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أنا لم أقصر، يبدو أن سيدنا موسى سكت عنه الغضب، أحياناً الإنسان من شدة إيمانه، من شدة حرصه، من شدة غيرته، من شدة ألمه، قد يخرج عن طوره ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ﴾ في آية أخرى :

قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي ۗ إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي (94)

سورة طه

من أين جره؟ من لحيته ﴿وَلَا بِرَأْسِي﴾

﴿إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتُ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلَنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ سيدنا موسى عاد إلى نفسه، قال :

قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (151)

سورة الأعراف

يعني كل واحد منا إذا أخطأ ينبغي أن يتوب إلى الله، وأن يرجع إليه، ليس لنا إلا الله .

من أراد أمراً فليتدبر عاقبته :

لكن الله عز وجل يقول :

إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيِّئًا لَّهُمْ عَصَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ (152)

سورة الأعراف

أين عقلك؟ أين إيمانك؟ من أراد أمراً فليتدبر عاقبته، يعني الإنسان لأن يسقط من السماء إلى الأرض فتنحطم أضلاعه أهون من أن يسقط من عين الله، مؤمن مريض ممكن، فقير ممكن، زواجه غير ناجح ممكن، ما رزقه الله بالأولاد ممكن، كله ممكن، لكن تعصي الله؟ تأخذ ما ليس لك؟ تحلف يمينا كاذباً؟

﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيِّئًا لَهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يعني المؤمن أكبر عطاء له أن الله يعزه، ويرفع قدره، وأي عمل فيه شرك معه ظلم .

وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (65)

سورة الزمر

سَلِّقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ج
وَبئسَ مَثْوًى لِلظَّالِمِينَ (151)

سورة آل عمران

غضب الله عز وجل شديد و مدمر :

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيِّئًا لَهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ يعني غضب الله شيء مدمر .
إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (12)

سورة البروج

والله أروي قصة كثيراً لكنها مؤثرة: إنسان راكب مركبته إلى المطار موظف هناك لكن موظف رفيع المستوى، أراد أن يعرض خبراته الدقيقة في القيادة على من إلى جانبه، فهناك جرو صغير في أيام الشتاء الزيت الأسود أكثر دفئاً من التراب، لأنه يمتص أشعة الشمس، فهذا الجرو جالس على طرف الطريق، فاستطاع قائد هذه السيارة بمهارة بالغة أن يقص يديه فقط دون أن يدهسه كله، وأطلق ضحكة هستيرية، يقسم لي بالله من كان إلى جانبه، في السبت القادم بعد أسبوع، في المكان نفسه إحدى العجلات أصبحت بحاجة إلى إصلاح، وقف، عنده رافعة، رفع المركبة، وحرر العجلة، فالرافعة فاسدة انكسرت وقعت المركبة فوق العجلة بشكل أفقي، والعجلة فوق راسه فهُرستاً، إلى أن وصل إلى المستشفى اسودت يده وقطعتا، يقسم بالله أنه في السبت الماضي قطع يدي جرو صغير، وفي السبت الذي تلاه قُطعت يده من الرسغين ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾.

والله أيها الإخوة، هناك آلاف القصص لكن نحن مشكلتنا القصة نعرفها من آخر فصل ما لها معنى، الذي راكب إلى جانبه قال لي: أمامي دهس، أو سحق يدي جرو صغير وضحك، في السبت القادم فقد يديه ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾.

التوبة النصوح أساس مغفرة الله عز وجل للإنسان :

وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَأَمَّنُوا بِرَبِّهِمْ إِنَّ رَبِّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (153)

سورة الأعراف

﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا﴾ إنسان عمل سيئاً، تاب، وأصلح، وعقد العزم على توبة نصوح ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَعَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أعتقد أن هناك أكثر من ثماني آيات في القرآن الشرط في التوبة :
﴿مَنْ بَعْدِهَا﴾ من بعد التوبة، وبعد الإصلاح، وبعد العمل الصالح ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَعَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

والحمد لله رب العالمين